لك من ان كل فكر يحفظ فيها حين تأثيره وحفظه في الدماغ. فتستكمل النفس بذلك الشرطين اللازمين لوجود كل كائن عاقل وجوداً متصلاً وهما حفظ ما مضى والعمل في الحال كما ذكرت في ما سلف من الكلام. فهذا بيان لكيفية امكان الخلود في العالم المنظور لا يستبعدها عاقل ولا ينفيها دليل.

والخلاصة من كل ما ذكرته لك في شأن الخلود ان العلم لا ينفيه بوجه من الوجوه خلافاً للذين يزعمون انه ينفيه وان هذا الكون المنظور قد نشأ اصلاً من كون غير منظور بقدرة كائن عاقل فاعل فيه. وان المنظور وغير المنظور مرتبطان معاً ومتفاعلان بمعنى ان قوة الواحد تؤثر في مادة الآخر وان الخلود ممكن على وجه معقول ومقبول في غير المنظور ولا يكون في المنظور. وهذا ما كان عليّ ان اثبته لك تبرئةً للعلم ممن يتهمه بما ليس فيه. ولما كان العلم بمعزل عن منافاة الخلود بل كانت الدلائل التي قدمتها تعزز صحة وقوعه فلك ندحة واسعة لاقامة كل ما هو معلوم عندك من الادلة على اثباته او القطع به مثل حنين البشر اليه واعتقاد كل الشعوب المتمدنة به وما ورد في التاريخ من الحوادث المقررة له وما جاء في الكتب المنزلة من الاقوال عنه. هذه كلها ادلة يؤيد العلم بعضها ولا يتعرض للبعض الآخر منها فحدّث بها ولا حرج. ولولا ما اجد فيّ من وهن العزائم وضعف القوى ما اقتصرت عن البحث ولا امسكت عن الكلام

قال الباحث ولم يأت الشيخ على تمام كلامه حتى اتى على ختام ايامه فشخص الى السماء لا يتكلم ثم زفر طويلاً وتبسّم فطارت نفسه الى دار الخلود وتوارت جثته بين هاتيك اللحود

الاسد في بلاد الأُسود

الأسدُ ملك الضواري واكبرها جسماً واشدها بأساً وللذكر منه لبدة كثيفة على رأسه وعنقه ينفشها اذا ازبأرّ فتزيده مهابة. واللبوة وهي انثاه لا لبدة لها وهي اصغر منه قداً واسرع عدواً وتلد جروين او ثلاثة او اربعة في البطن الواحد وتقيم عليها مع الاسد تعتني بها وتروضها الى ان تبلغ اشدها

وكانت الاسود قديماً كثيرة في الدنيا وبقيت منها بقيةٌ تُذكَر في اواسط اسيا وجنوبي اوربا الى ايام اليهود والرومانيين ثم انقرضت من كل اوربا ومن الشام والعراق. ولا توجد الآن الاّ في افريقية وبعض انحاء اسيا كبلاد العرب والهند وفارس. والاسد الافريقي اكبرها جسماً واشدها بأساً فان طول الكبير منه من انفه الى اصل ذنبه نحو ثماني اقدام وطول ذنبه نحو اربع

اقدام . وكان الرومانيون يستقدمونها افواجًا يعرضونها في معارضهم ويطلقون بعضها على بعض لتتواثب وتتصارع وتفنى عن آخرها

اما اطوار الاسد في بلاد الاسُود فقد شرحها جلمور السائح الافريقي فاقتطفنا عنهُ ما يأتي وعرّبناهُ قال: افضى بي طلب الصيد وحب القنص الى ضفاف نهر التمساح في جنوبي افريقية فوجدت ثمّ سهولاً فسيحة ورياضًا اريضة فيها الكثير من الجواميس والايائل والبحاميز تمرح أصورةً واسرابًا لوفرة المراعي وقرب الموارد . والذين خبرُوا حال افريقية يعلمون ان بلادًا مثل هذه تكثر فيها الاسود لكثرة الصيد والماء والاغياء . لان الاسد يكمن في اغياء الادغال بجوانب الغدران يترصّد الوحوش حتى اذا وردت الماء انقضّ عليها كالقضاء المبرَم . وما من دابّة الاّ ولها رزقها

وكان معي نفر من الرجال وقليل من الخيل ومركبة كبيرة تجرها الثيران فمرّ علينا شهر من الزمان ونحن نسمع فيهِ زئير الاسد كل ليلة ولا نخشى منهُ بأسًا لصفاء الجو ونقاء الليالي او طلوع القمر فيها اذ الأسد لا يهاجم الانسان نهارًا ولا يبيّتهُ الاّ في الليلة الظلماء . وكان معي كلاب كثيرة لها في الصيد مواقع مشهورة فكنت اركن اليها من هجمات الضواري ولو اسودًا . وفيما نحن في عيش رغيد وصيد كثير انذرت السماء بالمطر وبشّرت بهِ الرياح . فاوعزتُ الى الرجال ان سيروا بنا الى مرتفع من الارض حتى اذا طفت الغدران كنّا في مأمنٍ من سيلها الجارف . فلم نبعد الاّ ميلاً او ميلين حتى اكفهرّ وجه السماء واسودّت ارجاء الافق وحنّت العواصف حنين العشار وترامت بشهب النار واستطار الوادق وتضاحكت البوارق حتى اترعت الغدران والوهاد فتقلقلت اثقالنا من كثرة البلل وعجزت الثيران عن جرّ العجَل فتربصنا حيث وصلنا ننتظر الفرج والفتح القريب

وقد شاهدتُ الانواء الشديدة في الجبال الصخرية باميركا وفي جزائر الهند الشرقية والغربية فلم ارَ كحجاب افريقية اكفهرارًا ولا كامطارها انهمارًا ولا كتألّق برقها ولا كهزيم رعدها . وكأنّ طوائف الحيوان كلها تجزع من هذه الانواء وتنهلع قلوبها لها فتقف في اماكنها حيرى تتوقع الحتف ولا تطلب منهُ مهربًا ولا ملجأ . ولكنّ هذه الانواء على شدتها لا تطول مدتُها فلم يكن الاّ ساعة من الزمان حتى انقشعت السحب وبَعُد عنّا مَهطِل الامطار فصوّب الوحش في النجود وصعّد وحلّق الطير في السماء وغرّد . وكأنّ الطبيعة عاشت بعد موتها والخلائق بعثت بعد فواتها . فواصلنا السير الى ان بلغنا احدى الهضاب فنزلنا فيها وتفرّق الرجال الى اعمالهم ففصل بعضهم اشواكًا وادغالاً اقاموا منها وشيجًا لتحبيت الثيران فيهِ خوفًا عليها من الاسود . واحتطب بعضهم حطبًا لاضرام النيران حولنا لان الاسد لا يدنو من النار

ولم تغب الشمس حتى اطبقت السماء بالغيوم ركامًا ركامًا وعصفت الرياح في ارجائها تباعًا مدامًا . فكانت ليلة ليلاء يضل بها النجم ويعيش فيها الوهم . فصعدت الى مركبتي وكنت انام فيها واجتمع الرجال والكلاب تحتها . وفي نحو الساعة الثالثة من الليل دنا مني رجل من رجالي كنت اعتمد عليه واختلف في اموري اليه وقال لي ان الثيران في قلق واضطراب وهذا دليل على اقتراب الاسد منا . ووشيج الحظيرة غير حريز فلا يحميها منه ولا نأمن خروجها اذا جفلت فتقع للاسود غنيمة باردة . وكان هذا الرجل واسمه وليم صيادًا خبيرًا مرّت عليه سنون كثيرة في تلك البوادي فصدقت مقالته وامرت ان تقرن الثيران بالمركبة وان تُسند عجلاتها حتى لا تستطيع الثيران جرها . وكانت الخيول مربوطة بجانبها فاقلقتني الافكار والهواجس وقمت انفقد السلحي والثيران التي اضرمناها حول معرّسنا . وكنت التفت الى الثيران فاجدها تصرّ آذانها وتحدق الى جهة مهب الرياح بعيونها . وفيما انا اتأمل في ما عسى ان يداهمنا اذا بالثيران قد نفرت وحاولت جرّ المركبة فناداني وليم وقال قد داهمنا الاسود فقلت وكيف ذلك والكلاب لم تنبح ولم تهرّ فقال لو داهمنا اسد او اسدان لنبحت ولكنّ حولنا سبعة آساد او ثمانية وهذا الذي اعتقد السنتها ولم يفرغ من كلامه حتى نفرت الخيول ايضًا وحنصت وحاولت قلب المركبة فمت اليها وجعلت اسكّن روعها اذ لا شيء يسكن روع الفرس الجافل مثل صوت صاحبه . وامرت الرجال ان يتعهدوا النيران بالوقود . كلّ ذلك والكلاب مستكنة بين العجلات لا تقوم من بينها بالدعاء ولا بالضرب ولا تبدي حراكًا . وفيما انا متعجب من امرها وحاسب ان لا داعي لخوفها اذا بزئير لم اسمع مثله في حياتي دوت له القيعان والربى واهتزت به الارض كانة الرعد القاصف فاجفلت الخيول اي اجفال وحاولت قطع اعنتها او جرّ المركبة او قلبها وقام الرجال الى سلاحهم وكان مع وليم بندقية كبيرة جدًّا فاطلقها مرتين على المكان الذي خرج الزئير منه . وكان عهدي بصوت هذه البندقية انه يرهب اشدّ الضواري بطشًا ولكن اسامة لم يرهب صوتها ولا اكترث لازيز رصاصها فدنا مناوزأر مرة اخرى زئيرًا جنّت به الثيران فقطعت الاعنة واندفعت في عرض البيداء هاربة من وجه الاسد الى افواه الأسود .

وشأن الاسود انها اذا استروحت رائحة الثيران دنت منها متأجلة يتقدمها اسد كبير حنكته الايام وعلمته التجارب حتى اذا اقتربت منها ذهبت اللبوات والاشبال الى الجهة التي تهبّ الريح اليها وذهب الاسد الى الجهة التي تهب الريح منها فازبأرّ ونفض لبدته فتطاير رائحتها مع الريح فتستنشقها الثيران وتهمّ بالهرب فان لم تهرب دنا منها ونفض لبدته ثانية فان لم تهرب زأر زئيره الجهير وحينئذٍ تقطع كل رباط وتهرب مذعورة الى الجهة الاخرى فتقع فريسة باردة للبوات

والاشبال . وقد وقع لنا مثل ذلك حينئذٍ فهرب ثلاثة من اجود ثيراني فاوردتها الاشبال واللبأ حتفها في الحال وربضنَ فوقها "يرتقين بلحمها وشحم كهذّاب الدمقس المفتّل" وتبعهنَّ الاسد الكبير وشاركهنَّ في الوليمة على ما يظهر وكنت قد رأيته بضوء النار وهو منطلق نحومنّ واطلقت عليه رصاصتين كبيرتين فخار وزأر حتى صمّ آذاننا الاّ انهُ كان عازمًا ان يقاسم اشباله الغنيمة فلم يثنِ عن عزمهِ

ومضى ذلك الليل باهواله وشبعت الاسود من فريستها وتركت فضلاتها للضباع وبنات آوى فاكلت منهُ كفافها حتى لم يبقَ من الوليمة الاّ حطام العظام . فقمنا في الصباح وتفقدنا ميدان النزال فوجدنا آثار الاسد الجريح ودمهُ على الارض برك برك فاقتفينا اثرهُ نحو نصف ميل فوجدناهُ رابضًا في ظل شجرة وعليهِ دلائل النزع فلما وقع نظرهُ علينا تململ وانتصب على قوايمهِ وكأنّ لسان حالهِ يقول

مَن كان معترك الاهوالِ ملعبهُ يقابلُ الضيمَ لا يخشى بوادرهُ

ثم فغر فاهًا كالهاوية وتهيأ للدفاع

"فقلتُ لهُ وقد ابدى نصالاً محدّدةً ووجهًا مكفهرًّا"

غدرتَ بنا وإنّ الغدر عارٌ وحاشا أننا نلقاكَ غدْرا

ثم اطلقت عليهِ رصاصة إصابت جبهتهُ فوقع على الصعيد مضرجًا بدماهُ

وبعد قليل من الزمن وافانا ثلاثة رجال ومعهم شبلان صغيران جدًّا كل منهما قدر المرة التي عمرها نصف سنة فلم يكن الاّ بضع ثوانٍ حتى سمعنا زئيرًا شديدًا عن بعد فحمل الرجال الشبلين ووقفوا خلفنا كانهم يحتمون بنا . فقال وليم هذا زئير امها ولم يتم كلامهُ حتى اقبلت تتطالع في مشيتها وتجر ذيل العظمة والمهابة ثم وقفت على قيد مئة خطوة منا وجأرت جئيرًا لم اسمع مثلهُ في حياتي فلما سمع الشبلان جئيرها جعلا يعويان ويعضان الرجال ويخمشانها حتى اعيتهم الحيل في مسكها ولما وقع صوتها في اذني اللبوة فغرت فاها وانقضت علينا كانها الفضاء المبرم وكنت مستعدًا لها فاطلقتُ عليها رصاصة طرحتها على الارض ولكنها نهضت حالاً وحاولت الوثوب علينا فرميتها برصاصة أخرى اصابت كتفها وتحطمت عظامها تحطمًا فلم تثنِ عن عزمها فرماها وليم برصاصة ثالثة اصابت رأسها وقطعت انفاسها

ثم اخبرنا هؤلاء الرجال انهم رأوا اللبوة بالامس فرماها واحد بسهم مسموم وتركها ليسري السم في بدنها من نفسهِ ويميتها ثم قاموا في الصباح لينتشوا عنها فوجدوا هذين الشبلين في نقرة من الارض وهم لا يشكون ان امهما قد اماتها السم فاخذوهما واتوني بهما وكان من الامر ما كان لان

الرامي رمى لبوة أخرى. فاخذتها منهم واعطيتهم بدلاً منها رطلين من البارود وقليلاً من الرصاص. فذهبوا واستطردوا البحث عن اللبوة المرمية فوجدوها وسلخوا جلدها واتوني به. اما انا فاخذت الشبلين وربيتهما فالفا عليّ كغيرهما من الحيوانات الاليفة انتهى

هذا والصيادون جادُّون الآن في اثر الاسود وربما قرضوها بعد زمن قصير فتمحي من الحيوانات البائدة ولا يبقى لها ذكرٌ الاّ في الكتب ومعارض الحيوانات

الصين والصينيون

الصين ولا يجهل احدٌ امرها اكبر مملكة في الدنيا فيها من السكان ما يناهز على مئتين وخمسين مليوناً مع ان بلاد الروس واسعها ومقامها بين ممالك الارض معروفان لا يبلغ عدد رعاياها مئة مليون. نعم ان السلطنة الانكليزية لا تغرب الشمس عنها لاتساعها وفيها من السكان زهاء ثلثمئة مليون نفس ولكنّ الفريق الاكبر منهم خاضع خضوعاً غير تام. والصين اقدم ممالك الارض وشعبها اقدم الشعوب وعوائدهم تخالف عوائد اكثر الناس وقد مرّ عليها الوف من السنين مستقلةً بنفسها مستأثرةً بالثروة والمجد يطمع فيها الفاتحون فيغزونها ثم ينقلبون عنها مخذولين او يمتزجون بسكانها ويتخلقون باخلاقهم ويصيرون منهم

والصينيون يحبون الصناعة ولهم فيها مهارة عجيبة والصانع يحب بالمصنوعات البديعة ويحب اقتباسها ولذلك راجت عندهم سوق المصنوعات الاوربية ولا سيما الآلات والادوات ولكنهم لم يغفلوا عن ان استخدام المصنوعات الافرنجية وتقليدها شيءٌ وتولية الافرنج مصالح اهل البلاد واستخدام اموالهم لاجرائها شيءٌ آخر. ولذلك لم يسهلوا للافرنج ان ينشئوا معامل ولا سككاً حديدية في بلادهم. ومنذ نحو عشر سنوات اشترت شركة انكليزية ارضاً في بلاد الصين بين سنغاي ووُسن واستأذنت الحكومة بانشاء طريق للمركبات فيها ثم احتالت فانشأت فيها سكة حديدية طولها ثمانية اميال فاغتاظت الحكومة من ذلك وفي الآخر اضطرت ان تشتري الطريق وتخربها وهم لا يجهلون فوائد السكك الحديدية ولكنهم يقولون اننا اذا انشأناها الآن اضطررنا ان ننشئها بمال او ربا ورجالها فتكون ارباحها لا لنا فالاجدر بنا ان نصبر حتى يصير عندنا مال ورجال فننشئها بمالنا ونديرها برجالنا. وحبذا الوقت الذي يُقرَن فيه هذا القول بالفعل لان من لا يسعى لنفسه لا ينفعهُ سعي الغير له ولا سيما اذا القى عليه اعتمادهُ

وموارد العلم في الصين قديمة العهد جداً كما هي في كل بلدان المشرق وكانت الطباعة معروفة